عنوان المحاضرة الرابعة:

القصة على لسان الحيوان

عنوان المحاضرة الرابعة : القصة على لسان الحيوان

أولًا– القصة في التراث العربي :

اشتمل التراث العربي على العديد من القصص والحكايات ،وفي البداية نتعرف على مفهوم القصة قبل التطرق للحديث عن بداياتها وتطورها .

1–مفهوم القصة:

مماهو معلوم أن مصطلح القصة أصله من النقد الغربي الحديث ، ولكنَّه كمفهوم له جذور في تراثنا.

أ–مفهوم القصة في اللغة :

ورد في المعاجم اللغوية مفهوم القصة مأخوذ من مادة «قَصَّ أثره قَصًّا:تتبَّعه ؛ ويُقال قصَّصْتُ الشيء إذَا اتبَعت أثَرَه ،والقصُّ الأثر، والقصُّ ماقُصَّ من صُّوف ونحوه ، والقصة جمع قصص،وهي الحكاية، والقصة : رواية الخبر، والقص على خبر يقصه».

إن من دلالات القصة في اللغة هي تتبع الأثر وتقصيه، وجاء في لسان العرب لابن منظور «القصة : الخبر، وهو القصص، وقصَّ عليّ خبره يقصُه قصًا وقصصًا».

إن مفهوم القص في اللغة رواية الخبر، والقصة هي الحكاية، ومنه فالقصة في اللغة تعني رواية حكاية أو خبر،وقد تكون الرواية شفهية أو مكتوبة.

ب– مفهوم القصة اصطلاحًا:

إنَّ القصة هي سرد واقعي أو خيالي لأفعال قد تكون نثرًا أو شعرًا يقصد بها إثارة اهتمام المتلقي،وتروي القصة حدثًا عجيبة يُقدم على أنه حقيقي».

إن القصة هي سرد لأحداث حقيقية أو خيالية،وهي فن نثري تروي أحداثًا خيالية تقدم على أنها حقيقية، والغاية هي شد اهتمام المتلقين والتأثير فيهم «والقصة هي مساق سردي من الحوادث يتعلق بشخصية أو شخصيات تبحث عن حل للمشكلة ،أو تسعى للوصول إلى غاية ،وهي تتوسط بين القصة القصيرة والرواية ».

تعد القصة متوسطة الحجم بالمقارنة بين القصة القصيرة والرواية ، وهي عبارة عن أحداث مرتبطة بشخصيات تحاول حل مشكلة، ومن مرادفات مصطلح القصة عند العرب : الخبر أو الحكاية أو الأحدوثة .

2– تطور القصة عند التراث العربي :

عرف العرب القصة من السمر،وكان جزءًا من كلامهم وأحاديثهم،وكان للقصص مجالس خاصة ، واهتم النقاد بالقصص في الشعر عند عنترة ابن شداد وامرئ القيس،والقصص الشعبية، والقصص في القرآن الكريم... وتحدث القدماء عن القصة في باب الاقتصاص، وعرف التراث العربي نوعًا من القصص معظمهم شعبية مثل:

عنوان المحاضرة الرابعة : القصة على لسان الحيوان

ألف ليلة وليلة ،وللقصة أنواع وأشكال كالقصة الشعرية والفلسفية ، والقصة على لسان الحيوان». عادت بدايات القصص العربي إلى العصر الجاهلي، ولقد وردت القصة في القرآن الكريم، وتطور التأليف في القصص العربي، فظهرت أعمال قصصية مكتملة شعبية ودينية وفلسفية ..الخ

ثانيًا – نشأة وتطور القصة على لسان الحيوان :

تعد القصة على لسان الحيوان لون قصصي دخيل على الأدب العربي القديم، وارتبط بالآداب الهندية والفارسية.

1– نشأة القصة على لسان الحيوان :

عرف العرب الحكاية على لسان الحيوان من خلال المثل الشعبي، ولذلك اتخذت الحكاية عندهم شكل المثل واقتحمت المرويات الخرافية قصور الخلفاء ،ووجدت الأوصاف العامية تمثيلًا خصبًا لخيالاتها».

تطورت القصة العربية في بلاط الخلفاء، وبشجيع منهم «وبقيام ابن المقفع بترجمة كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية (اللغة الفارسية القديمة) إلى اللغة العربية عرف العرب الجنس الفني للحكاية على لسان الحيوان في صورة مكتملة له قواعد فنية خاصة، واتفق كل من أحمد أمين والعقاد وتوفيق الحكيم على أن العرب لم يعرفوا القصة إلا في عصور متأخرة كالعصر العباسي».

ظهرت القصة العربية بمفهومها الفني في العصر العباسي متأثرة بقصص الفرس، وتعد في هذا السياق قصص كليلة ودمنة مكتملة فنيًا دفعت لقواعد منظمة في سرد أحداثها.

2– مصادر كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع :

لقد ترجمة ابن المقفع كليلة ودمنة،ويقال أنها نُقلت في عهد كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية،وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية،من مثل "بنج تانترا ومثل هتو بادشا" ووجدوا منها بعض أصول في المهابهارتا "ممايؤكد أنها هندية الأصول ،ورجح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد في الكتاب بعض الفصول والقصص».

ظهر الغرض من الكتابة عند ابن المقفع في قوله في كتابه كليلة ودمنة:«إني مظهر للناس هذا الغرض ،إن شاء الله لابد من التصريح بالإصلاح بعد التلميح ،لقد آن أن توضع الأمور في نصابها».

تعددت مصادر كتاب"كليلة ودمنة" ، وقد تقصى د. شمس الدين «منابع الكتاب الهندية والفارسية والتوراتية والسريانية والمسيحية والعربية والإسلامية،وحاول رصد التطورات،التي أصابت الكتاب خلال مسيرته التاريخية،وعلى سبيل المثال أشار د.شمس الدين إلى أن باب حرب "**البوم والغربان**"مستمدة من قصة "**جديمة وزباء**"،وهي ذات جذور يونانية عادت إلى أسطورة حصان طروادة، وأشار د. عبد اللطيف حمزة إلى تأثير الخيال الإسلامي في قصة **زباء** من باب **البوم والغربان**"،وهي قصة أوردها ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار،ونقلها عن أصالة الكتاب العربية، وفي هذا الكتاب يرى د.محمد رجب أن الأبواب الأولى غير واردة في الأصل الهندي، وأن الحكاية الإطارية دبشليم وبيدبا تخص الكتاب العربي فقط».

ومنه إذن على الرغم من التشابه بين النصين العربي والهندي في كليلة ودمنة، ومع ذلك هناك تفاوت في طريقة عرض الأحداث ، ولاحظنا تعدد مصادر نص كليلة ودمنة إلى أن روح الثقافة العربية هي الغالبة عليه.

3-أسلوب ابن المقفع في سرد قصص كليلة ودمنة :

توفر لابن المقفع أسلوب قصصي مميز بإثارته السردية، وكتابه ماهو إلا ستار اختفى وراءه ليعرض به آرائه ومثَّل القسم الأول من كتابه الكتب الهندية ،والقسم الثاني الكتب الفارسية (الإيرانية) وأضاف القسم الثالث العربي عند ترجمته إلى اللغة العربية».

ظهر أسلوب ابن المقفع من خلال جمعه وترتيبه، وإعادة صياغته لقصص كليلة ودمنة ذات الأصل الهندي،وأضاف قسمًا عربيًا للكتاب «وجرى الرمز فيه طرفة على لسان الحيوان ، وتتمتع حكايات كليلة ودمنة بتعدد المضمون ،ويمكن للحكاية أن تتكرر في مضمونها،وتتسلل أحداثها مع الاختلاف في تغيير شخصيات وتستعمل الحيوانات الحيلة لقضاء مآربها، وكذلك الحكماء يصوغون الحيلة من أجل القيام بدورهم التعليمي».

لاحظ النقاد تعدد مضامين قصص كليلة ودمنة،وهذا راجع لكونها من نسخ الخيال(حكاية الصياد وزوجي البلبل)ومثلما نجد الحيل عند الحيوانات القضاء مآربهم ،وصاغ العلماء الحيل لإصلاح الناس وتهذيب سلوكهم».

ونلاحظ في الكتاب العربي من كليلة ودمنة أربعة أغراض تربوية وعقيلة وجمالية موجهة إلى الشعب،وأما الهندي فله غرض تربوي أو تعليم واحد موجه إلى الصفوة،وأن الحكايات الفرعية مختلفة حذفًا وإضافة أوتقديمًا وتأخيرًا وكان ابن المقفع يؤول،ويعيد تفسير بعض الحكايات في النص الهندي ،ولاحظ النقاد نجاح النص الهندي في الارتقاء بفن القصة على لسان الحيوان من الشفوية إلى الأدب الكتابي..وابن المقفع وإن لم يكن مجددًا في مادته؛ إلَّا أنَّه كان جديدًا في أسلوبه،وتوظيفه المثل في قالب قصصي له أهداف عظيمة ،وأحدث تطورًا في استخدام المثل».

نستطيع القول بأن ابن المقفع وُفق في الانتقال بالسردية العربية القديمة من الصياغة الشفهية للحكايات إلى الكتابة وتدوينها، وهذا انعكس إيجابًا التأليف في مجال السردية العربية القديمة.

لقد تعددت أغراض كتاب كليلة ودمنة فمنها الأخلاقية والأدبية والجمالية،ولابن المقفع دور في صياغة الحكايات بأسلوبه«وأشاع كتاب كليلة ودمنة مناخًا خرافيًا،وشجع الأدباء على الاشتغال في هذا النوع السردي الخرافي والكتاب أثرى الفن القصصي الرسمي بلغته الأدبية الراقية،وبحكمه العميقة،وابتعد عن طريقة القص الشعبي ».

إنّ مميّز أسلوب ابن المقفع هو تأليفه لقصص كليلة ودمنة بلغة سردية راقية ابتعدت عن الشفاهية ، وأسلوب القص الشعبي المعروف عند العرب،ولاقت النسخة العربية من كتاب كليلة ودمنة رواجًا كبيرًا ، وأصبحت الأصل الذي استند عليه الأدباء والنقاد، وكان توظيف المثل في القصص هو ميزة السردية العربية القديمة .

4-أنماط تلقي كتاب كليلة ودمنة :

اختلفت أنواع تلقي كتاب كليلة ودمنة ، وذلك رجع لغاية ابن المقفع من تأليفه ،فيقول في مقدمة كتابه: «جمع هذا الكتابة لهوًا وحكمةً، فاجتباه الحكماء لحكمته ، والسخفاء للهوهم؛وأما المتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه ، وخَفَّ عليهم حِفظُه».

جمع ابن المقفع في أسلوبه بين الإقناع والإمتاع،ويمكن استخلاص ثلاث أنماط لقارئ الكتاب «فهناك القارئ السخيف ، الذي يتوقف عند الهزل واللهو،وهناك القارئ الفطن (الذكاء مع الحيلة)الذي يتجاوز مرحلة السرد،ويهتدي إلى الحكمة؛ولكنه يتوقف عند هذا الحد، والقارئ العاقل ،الذي يستوعب الحكمة، ويُخضع سلوكه لأوامرها ونواهيها».

ومنه في الأخير نؤكد على براعة ابن المقفع في صياغته السردية لقصصه على لسان الحيوان ،ونتفق مع رأي الناقد أحمد أمين في أن «كتاب كليلة ودمنة اجتمعت فيه حكمة الهند ، وسياسة الفرس، وبلاغة العرب».

وصفوة القول نرى بأنه لابن المقفع في كتابه كليلة ودمنة الفضل في تطور فن القصة العربية عمومًا ، ولاسيما القصة على لسان الحيوان، التي تعد فتحًا جديدًا في السردية العربية القديمة .